بسمارك

تأليف اميل لودوج

ترجمة الأستاذ عادل زعيتر

لا يكاد الشتاء يأزف حتى يشخص إلى القاهرة الأديب العالم الأستاذ عادل زعيتر ، ولا يكاد يهبط مصر حتى يتساءل المفكرون والأدباء عما يحمل الأستاذ فى وطابه ، وكانت رحلة الشتاء هذا العام مباركة ، فقد أتحف الأستاذ زعيتر مكتبتنا العربية بكتب خمسة ذات قيمة ، وفيها نفع جليل ، وهى حصيلة عام واحد قضاه فى جهد موصول ودأب غير مقطوع ؛ إنها «بسمارك» و « الحياة والحب » لأميل لودج ، و « السنن النفسية لتطور الأمم » و « روح الجماعات » و « اليهود فى تاريخ الحضارات للفيلسوف الفرنسى غوستاف لوبون .

لقد قرأت « بسمارك » وهو سفر ضخم ، طبع فى مطبعة المعارف ، وتبلغ صفحاته ٧٨٧ صفحة لم أكد أقرأ أولى فصوله حتى رأيتنى مسوقاً إلى الانكباب على مطالعته ، وإذا حدث ان اضطررت إلى التوقف فما أسرع ما يعاودنى الشوق إلى استئناف القراءة . وأشهد أنى أسفت حين أوفيت على نهاية الكتاب وودت لو استطالت بى المتعة .

يعرف القارىء اميل لودوج كاتب عالى شهير ، امتاز بأسلوبه الشائق فى كتابته سير العظماء ، ومن حق القارىء أن يعرف كذلك أن لودوج ، حين يعرض سيرة العظيم ، يحرص على أن يصل بين حياته الخاصة وحياته العامة وصلا محكما ، زهو ينقل القارىء إلى صميم بيئة العظيم فى غير اصطناع أو تكلف حتى ليحسبن القارىء نفسه صديقا للبطل أو هو من ذوى قرباه ، ويكون تجاوب بين القارىء والعظيم ، فيحاوره ويبين ما يرتسم على وجهه ويسير ما ينطبع فى ذهنه !

ولقد رأيتنى ألمس فى الكتاب هواجس بسمارك طفلا ، وأرافقه صغيراً ، واجلس على رحلته الدرسية وأزامله رياضياً وأراقبه موظفا ، وأرى ما أرى من تعاليه وكبريائه يافعاً ، وأحار فى تراوح الرجل بين الالحاد والتقوى ، وبين الشك واليقين ، ورأيتنى أمعن الفكر فى التناقض الذى يتجلى فى طبيعة بسمارك .. تلك الطبيعة التى لا يرتضيها أى عظيم . ثم رأيت بسمارك فى الدبلوماسية وسمعته خطيبا ، تقبعت حياله ، وكان يرمضنى أن ألحظ فى مطلع حياته مناوأته للاحرار ، وتزعته البروسية الاقليمية ، وكدت أنحاز إلى خصومه لولا ما كان يجذبنى إليه من إعجاب بشجاعته وإقدامه ، ولولا تلك المتعة التى كنت أظفر بها حين أقرأ رسائله التى اتسمت بالبيان المشرق والقول الساحر ووصفه البليغ تلك المحن النفسية التى كان يعانيها حين يختلف والملك والملكة وولى العهد والشعب والضباط .. ثم قدرته سياسياً بارعا حين غدا سفيراً لبلاده فى بطرسبرج فباريس ، وأعجبت أى اعجاب بدوره فى قضية شلزويج وهولشتاين وما كان من أمره فى حرب النمسا ؛ وأكبرته حين قال قولته المشهورة : « أعرف أننى ممقوت ولكن الحظ متقلب تقلب رأى الناس ، وأجازف برأسى ، وألعب لعبتى وإن أسفرت عن سوق إلى المشنقة ، ولن تبقى بروسية ولا ألمانية كما كانتا ولا بد لهما من سلوك تلك السبيل وصولا إلى ما يجب أن تكونا عليه ، ولا تجد سوى هذه السبيل ! » .

وجاء نصر الله فى سادوا ووثبت الوحدة الألمانية أشواطاً ، ورأينا عبقرية بسمارك فى حرصه على تجنب ما ينكأ قروح النمسا من الذكريات الجارحة ، وأخذه النمسا المغلوبة بالرفق والمهادنة ، ليحول دون توثيق صلاتها بفرنسة ، ذلك لأنه أبصر فى الأفق حرباً أخرى سيحمل عليها طوعاً أو كرهاً ... ورأى التاريخ فى أعقاب ذلك من شجاعة بسمارك وصموده لتهديدات المجلس وريب الملك ومعارضة الملكة وأركان القصر ودسائس السفراء ووسوسات المثالين ما دون مهه أن هذا العظيم رجل يخضع خياله لواقعيته فيزن كلامه ويهيىء أفعاله ، ويؤثر عظائم الأمور على الصور ، مستعداً للعمل مع أية أمة وأية دولة إذا ما لاءم هذا

هدفه ورأى بسمارك بعد سادوا أن المانيا لن تظفر بوحدة أوسع نطاقاً بغير العنف أو بغير خطر مشترك يثير غضب الألمان كلهم، فأعد العدة لحرب السبعين ... ثم كان الفتح المبين فى سيدان وتوج فى باريس قيصر بروسيا امبراطوراً لألمانيا الوحدة فى احتفال وصفه لودوج وصفاً أثار فيه الألم لما لقيه بسمارك فيه من جحود سيده. ومن هو بسمارك المجحود المنكور. إنه «الرجل الذى يلاعب الدول العظمى فى أوروبا ملاعبة الحاوى الماهر» إنه الرجل الذى رأيناه حديدياً فى الشؤون الداخلية وامرن الدبلوميين كافة فى الصلات الخارجية. وكان لودوج يحلل خلال ذلك نفسية العظيم وآراءه فى الكنيسة والبيت والطبيعة والتاريخ وولعه بالغابات والكلاب، وسيأخذ القارىء العجب من تنبؤات بسمارك واستنتاجاته حول المستقبل حتى ليظن انه كان يرى بنور الغيب حين قال عن روسيا: «فالثورة والجمهورية أمران قد يلمان بروسية فى أقرب وقت، وفى روسيا أناس كثيرون يعلقون آمالهم على كارثة حربية تصاب بها تخلصا من النظام القيصرى».

والقارىء يخرج من مطالعة الكتاب قائماً أن ألمانيا لو أخذت بآراء بسمارك وسلكت، بعده، سياسته لما أصيبت بما أصيبت به فى الحربين العالميتين الكبيرتين ... ويقنع القارىء كذلك، أن من واجب قادة الحركة القومية، وحملة الفكرة العربية، ودعاة الوحدة العربية أن يقرأوا كتاب بسمارك بانى الوحدة الألمانية، ففيه دروس وعبر. وأحب أن أنصف الأستاذ المعرب، فأشيد بالجهد العظيم الذى بذله فى نقل هذا السفر الضخم إلى لغة الضاد فى بلاغة ورواء وفتنة، وأن أنوه باشتقاقاته اللغوية الموفقة وبقدرته على اكتشاف اللفظ الذى يغنى عن الجملة، وأن أشير إلى أنه أول من قال دبلمى بدلاً من دبلوماسى أو دبلوماتى، وكلاسى بدلاً من كلاسيكى، والبلطى بدلاً من البلطيكى، فأرجع كل كلمة إلى أصلها واجتنب تكرر النسبة هذا التكرر الذى لا يتنزه عنه كبار الكتاب.

وإذا كان لنا ما نأخذه عليه فهو إعراب فى كلمات قليلة فى الكتاب لها مايماثلها فى العربية معنى وما يفوقها سلاسة. وبعد فإننا نعتقد ان الأستاذ الجليل عادل زعيتر قد خدم العربية وزود — وحده — مكتبتها بما تنوء بمثله عصبة من الأدباء والفضلاء ذلك لأنه يترجم عن الكتب مالا تجد لها مثيلات فى اللغة العربية، ومالا ينتظر أن يؤلف مثلها كتاب العربية، وفى لغة ان لم تكن فى مستواها أعلى من الأصلية فليست دونها فى حال ... فمن حقه إذن أن نهنئه بما أصابه من توفيق عظيم. ومن حقنا أن نتطلع دائما إلى المزيد من ثمرات جهده الفذ فى إعجاب وتقدير.

«عربى»

تلخيص كتاب النفس

للفيلسوف ابن رشد

نشره وحققه الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
مطبعة مصر — القاهرة ١٩٥٠

للاستاذ محمد عبد الغني حسن

لاانكر أن نشر أثر عربى قديم يحمل من المعنى اللغوى لكلمه النشر مايحمله البعث بعد الموت من معان وما أحوجنا اليوم إلى الانبعاث من جديد ... وما أحوج ميراثنا العربى العتيق إلى أن تزاح عنه الأكفان، وينفض غبار السنين من فوقه، فأن العروبة اليوم تقف فى ساحة النشور.

وقد كتبت عن هذا الكتاب الجديد للصديق الدكتور الأهوانى كتابة باعدتها عن محيط الصداقة، وأدخلتها فى دائرة الصدق، خشية أن يضيع شىء منهما على حساب صاحبه. وما أظن فى الذى فعلت إخلالا بحق الصداقة، أو إغفالا لأمر المودة. وما أظن الدكتور الأهوانى إلا راضيا بما صنعت، فقد عودنا دائما أنه يحب سقراط ولكنه يحب الحق أكثر منه.

و الكتاب جوانب ما كان يتسع لها مقام محدود فى مقال واحد، فأن هذا الكتاب هو فى الحق خمسة كتب فى كتاب واحد، وما ظنك أيها القارىء الكريم بخمسة مخطوطات فى الفلسفة الإسلامية أتيح لها أن ترى النور دفعة واحدة فى كتاب

واحد ؟! اليس من حق هذه الكتب علينا - وهي لأربعة من كبار فلاسفة الإسلام - أن نقف معها ونطيل الوقوف ولا نجد في ذلك الوقوف بأسا ؟ فان الشعراء كانوا يقفون على الأربع الأدراس ولا يجدون في أنفسهم حرجا مما يصنعون ، ولا بأسا فيما يفعلون. ونحن هنا - أمام هذه المخطوطات العربية الخمسة - نقف على أطلال من الفلسفة الإسلامية أعادها النشر شيئا جديداً ، ورد [illegible] وقد نضر التحقيق شبابها ، وأعاد لها رحابها ، فنقبل ذا الجدار وذا الجدار ، لا حبا في المكان ، ولكن شغفا بالسكان ... وما السكان هنا ! إلا تلك المعاني الفلسفية التي تعبر عن تصور فلاسفة المسلمين للنفس والعقل ، وكيف اتصلت العقول بالأجسام .

وأول هذه الرسائل تلخيص كتاب النفس لابن رشد ، وليس التلخيص للدكتور الأهواني ولكنه لأبي الوليد محمد بن رشد نفسه ! ومعنى هذا أن وراء هذا الملخص مطولا ، وأن خلف هذا الموجز محيطاً ، ويدل عليه قوله . (وهذا كله قد بينته في شرحي لكتاب أرسطو في النفس ، فمن أحب أن يقف على حقيقة رأيي في هذه المسألة فعليه بذلك الكتاب) . ونبحث نحن عن هذا الكتاب ، وتمنى النفس أن نجد فيه من البسط للرأي والبيان في الشرح ما تحل به طلاسم التلخيص فاذا الدكتور الأهواني ييئسنا من هذه الغاية ويقطع منها مناط الآمال ويقول (ولم نعثر على هذا الكتاب في العربية) . فاذا قام بخاطرك هذا التساؤل الآتي : ولماذا لا نترجم هذا الكتاب المطول في النفس عن اللاتينية ؟ وجدت جواب الدكتور الأهواني يرد على هذا التساؤل بقوله : (والرجوع إليه في الترجمة اللاتينية لا يخلو من التضليل ، لأن التراجم اللاتينية كثيرا ما ابتعدت عن الأصل ولم تكن أمينة في النقل) . وهذه التهمة الخطيرة للتراجم اللاتينية لا أجرؤ على التسليم بها ولا أدعي لنفسي الدفاع عنها ، لأنها مما لا يصل اليه جهلي المطبق باللاتينية .

ولست والحمد لله لاتينيا ، ولا أمت إلى اللاتين بعرق ، فكل ما يجري في دمي عربي صميم . ولكني أكره الاتهام الجزاف لغيري تقية أن أكون أنا نفسي موضعا للاتهام ! ولا زلت أذكر أن كثيرا من التراجم العربية للفلسفة اليونانية كان كثير الفساد والقلق والغموض ، حتى لقد باعد ذلك بين التراجم العربية وبين أصولها اليونانية ، وحتى أصبحت هذه التراجم بعيدة عن الناس غريبة عليهم ، وحتى ذكر أحد تلامذة ابن رشد عن أستاذه أنه قال : (استدعاني أبوبكر بن طفيل يوما فقال لي . سمعت اليوم أمير المؤمنين يشكو من قلق عبارة أرسطاطاليس أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : لو وقع لهذا الكتاب من يلخصه لنا ويقرب أغراضه لنا لأن ذلك فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس ، فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل . وإني لأرجو أن تفي به ، لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك ، وقوة نزوعك إلى الصناعة . وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سني ، واشتغالي بالخدمة ، وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه .. قال ابن رشد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطاطاليس)

فابن طفيل يشكو بلسان أمير المؤمنين من قلق التراجم العربية لأرسطو وغموضها ، وابن رشد يقر اقرارا ضمنيا بالشكوى بدليل اقدامه على تلخيص ما لخص من كتب المعلم الأول . ولعل شيئاً — قليلا أو كثيرا — من الاعتداد بالنفس هو الذي حمله هذا الحمل من التلخيص حتى يكون له فضل تقريب الفلسفة من الأفهام بعد أن باعد الغموض بينها وبين الناس . ولكني أخشى أن ابن رشد كان في التلخيص أكثر غموضا مما كان غيره في التطويل . ! ولعله نسي قول ابن طفيل له : « يقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا » وآفة ابن رشد في هذا الغموض إما أن يكون مأتاها من ناحية فهمه أو من ناحية مقدرته على التفهيم ! وأخشى أن يكون ذلك آفة الفلاسفة جميعاً .

إلا أن الدكتور الأهواني صنع في الحق شيئا لم يصنعه ابن رشد في التلخيص الغامض ! فقد جعل للتلخيص تلخيصاً في المقدمة التفسيرية التي قدم بها بين يدي الكتاب . وهي مقدمة نفيسة وقد زاد في نفاستها أن صديقنا الأهواني استعان فيها بآراء طائفة من كبار المشتغلين بالفلسفة ، مثل « جوبتيه » و « تيري » و « سلسون » و « والاس » و « برهييه » و « دوهيم ».

ولعلك تلاحظ أيها القارىء الكريم أعجمية هذه الخفنة